المجلد : 12/ العدد : 02 / الشهر: أوت/ السنة: 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

العجيب في رحلة ماء الموائد لأبي سالم العياشي (ت 1090هـ)

بقلم: د. خالد التوزاني[1]

تاريخ الإرسال: 24 / 07 /2020	تاريخ القبول: 26/ 07 / 2020	تاريخ النشر: 01/ 08 / 2020

ملخص:

إذا كان هدف العجيب في الأدب غير الصوفي فضح الواقع وتعرية المعاني المختفية في شقوقه، فإنه في نموذج الرحلة الصوفية محاولة لتغيير ذلك الواقع، من خلال اقتراح حلول جديدة تخدم عمران الكون والإنسان، باعتبار الرحلة الصوفية انتقالا من حال مألوف غير مرغوب فيه، إلى حال "عجيب" مرغوب ومطلوب. ومن ثم، تسعى هذه المداخلة إلى بسط موائد العجيب في أحد النماذج الصوفية، وهي رحلة "ماء الموائد" لأبي سالم العياشي (ت 1090هـ)، كاشفةً عن جماليات العجيب الصوفي وخصوصياته في الرحلة الصوفية، إضافة إلى مناقشة الإشكالات التي يثيرها والقضايا المنهجية والفكرية والجمالية التي يستبطنها.

الكلمات المفتاحية: الرحلة، ماء الموائد، عجيب، أبي سالم العياشي.

Summary :

If the aim of the wondrous in non-Sufi literature is exposing the reality and nudging the meanings hidden in its cracks, then in the model of the mystical journey is an attempt to change that reality, by proposing new solutions that serve the construction of the universe and man, as the mystical journey is a transition from an unwanted familiar state, to the state of Fantastic, desirable and required. Hence, this intervention seeks to extend the tables of Al-Ajeeb in one of the Sufi models, which is the "Water of the Tables" trip by Abu Salem Al-Ayyashi (d. 1090 AH), revealing the aesthetics of Sufi and his specialities in the Sufi journey, in addition to discussing the problems it raises and the methodological, intellectual and aesthetic issues that cover it .

Keywords : The journey, table water, Ajeeb, Abi Salem Al-Ayashi.

[1] أستاذ باحث في الأدب والنقد والتصوف touzani79@hotmail.com.

المجلد : 12/ العدد : 02 / الشهر: أوت/ السنة: 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

"ماء الموائد": الرحلة العجيبة

تعد رحلة " ماء الموائد" وثيقة لا تقدر بثمن في دراسة الحركة الفكرية والروحية بالمغرب وباقي أنحاء الوطن العربي، فهي من "أعظم رحلات أهل المغرب العلمية" [1]، حيث أقبلت عليها الأوساط العلمية في المغرب وخارجه، فتعددت نسخها الخطية [2] داخل المغرب وخارجه [3]، إذ "لا تكاد تخلو خزانة عالم كبير منها" [4]، نظرا لاحتفائها بأجواء الحياة في مغرب القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين بل في كثير من البقاع الإسلامية إبان تلك الفترة، خاصة وأن الموسوعية التي اتصفت بها هذه الرحلة "جعلتها مصدرا موثوقا لأخبار وأحداث العصر على طول الخط الذي اتبعته الرحلة، بوصفها للبلاد والأحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية" [5]، ومما يزيد هذه الرحلة أهمية كونها تشتمل "زيادة على وصف البلدان التي مر بها الكاتب، على تراجم علماء مشهورين، وإشارات تاريخية، ومناظرات فقهية لا تخلو من طرافة" [6]، حيث "يظهر أسلوب جديد في البحث يحاول أن يتجاوز النطاق المغربي المحدود إلى ذلك الفضاء الواسع الذي يمتد إلى الشرق الأدنى، حيث تختلف المناهج الدراسية نوعاً ما عنها في المغرب، وحيث تتسم طرائق التصنيف ومواضيع التأليف بميزات من طراز جديد [7]، وبذلك دشنت هذه الرحلة للاختلاف ، واستطاعت أن تصنع من العجيب جماليات فنية وموضوعية لفتت انتباه متلقي الرحلة على مر العصور، إلى درجة يمكن عدها التقاطا للعجيب أينما كان، كما قيل في مدحها:

وَقَدْ لَقطت من كلِّ علم عَجِيبة ومِن حُلَلِ الأَخْبَارِ أَغْرَبُ حُلَّة

(...)

---

[1] عبد السلام بن سوده، دليل مؤرخ المغرب، دار الكتاب، الدار البيضاء، ط: 2، (60-1965)، ج:2، ص:362.

[2] أحمد العراقي، إسهام الرحالة العلماء المغاربة في النشاط العلمي بالحرمين الشريفين خلال القرنين الهجريين الحادي عشر والثاني عشر، ضمن: الأدب المغربي من خلال تواصلاته،مطبعة أنفو – برانت، فاس، ط:1، 2001، ص: 100.

[3] مخطوط "الرحلة العياشية" يوجد بمكتبة البلدية في مدينة الإسكندرية بمصر تح ت رقم (3437ج) في جزأين، بخط مغربي جميل، كما أن هنا كنسخة منه في مكتبة استانبول برقم (2415).

[4] القدس والخليل في الرحلات المغربية:رحلة ابن عثمان نموذجا، جم. وتح: عبد الهادي التازي، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة إيسسكو،1997، ص: 24.

[5] خالد سقاط، من مقدمة تحقيقه لرحلة للرحلة العياشية "ماء الموائد"، لأبي سالم عبد الله العياشي (ت1090ه)، أطروحة لنيل الدكتوراه، خزانة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهراز، فاس، (1998-1999) جامعة سيدي محمد بن عبد الله، ص: 102.

[6] محمد الأخضر، مصادر الأدب المغربي، مجلة: الثقافة المغربية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافة، الرباط، ع: 8، 1973، ص: 80.

[7] عبد العزيز بن عبدالله، تواكب الفكرين الصوفي والأدبي، التاريخ العربي،ع: 25،شتاء 2003. المقال متاح على الشبكة من خلال موقع المجلة:

http://www.attarikh-alarabi.ma/Html/adad25partie2.htm

المجلد : 12/ العدد : 02 / الشهر: أوت/ السنة: 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

وَكَمْ مَثَل وَطُرْفَة وَ عَجِيبَة وفَائِدَة خلت لهم فتخلت[1]

على الرغم من كل الشهادات التي تمنح قيمة لرحلة "ماء الموائد"، إلا أن تلك الشهادات لا تصدر عن مكانة العجيب فيها، وإنما تصدر عن مكانتها في فن الرحلة عند العرب، وبالأخص عند الصوفية، وعما تميزت به شخصية صاحبها من موسوعية وسعة اطلاع، أي أن العجيب فيها لم يحظ فيما نعلم بما يستحقه من عناية، وعلى هذا الأساس، فإن ما استوقفني في هذا المجال بالذات، هو: كثافة موائد العجيب في هذه الرحلة الصوفية.

الرّحالة أبو سالم العياشي

على الرغم من أن أبا سالم العياشي لم يدون ترجمة ذاتية، باستثناء ما ورد في بعض مؤلفاته عن أسرته وبعض أعلامها، إلا أن العديد من المصادر والمراجع قد تطرقت للحديث عن ترجمته أثناء دراسة بعض آثاره العلمية، ولعل عددها يفوق الستين، بين مختصرة ومطولة وأخرى باللغة الأجنبية [2].

فمن هو العياشي؟

هو عبد الله بن محمد بن أبي بكر بن يوسف بن موسى بن محمد بن يوسف بن عبد الله العياشي[3]، نسبة لآل عياش أو آيت عياش. اشتهر بكنية أبي سالم [4]، من أبرز شيوخ الزاوية العياشية [5]، العياشية[5]، وهو في الأصل أبي محمد على عادة من كان اسمه "عبد الله". وكان يلقب بعفيف الدين،

---

[1] ينظر القصيدة كاملة ضمن: ماء الموائد، مصدر سابق، ج: 4، ص: 1299.

[2] خالد سقاط، من مقدمة تحقيقه لرحلة "ماء الموائد"، مصدر سابق، ص:38. وأيضا: عبد الله بنصر العلوي، أبو سالم العياشي المتصوف الأديب، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، فضالة، المغرب، 1998، ص ص: 75- 83.

[3] ينبغي عدم الخلط بين رحالتنا وبين سميه اسما ولقبا ابن المجاهد العياشي الذي كانت وفاته سنة 1073هـ، فاسم والده هو: أبو عبد الله محمد بن أبي العباس أحمد المالكي العياشي المجاهد السلوي (ت1051هـ)،كان مجاهدا صالحا، وقد ذكره أبو سالم في رحلته ونعته بالرجل الصالح المجاهد، ينظر: ماء الموائد، ج:3، ص: 739-740. وأخبار هذا المجاهد مستوفاة في: نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، لمحمد بن الطيب القادري، تح: محمد حجي وأحمد التوفيق، مكتبة الطالب، الرباط،د.ط، 1986،ج:1 ص: 371-375-380 ج:2، ص:7. وفي: الحركة الفكرية بالمغربفي عهد السعديين لمحمد حجي،مط. فضالة، المحمدية، 1988، ج:2،ص:445. وفي: الحركة العياشية حلقة من تاريخ المغرب في القرن 17 لعبد اللطيف الشادلي، منشورا ت كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ضمن سلسلة أطروحات ورسائل: 10، ط: 1، 1982،ص:6وما بعدها.

[4] حول أصل هذه التسمية يقول أبو سالم في كتابه: اقتفاء الأثر بعد ذهاب أهل الأثر عند ذكر الشيخ أبي اللطف الوفائي(ت1156هـ): "ألبسني الخرقة وكناني بأبي سالم، وقال لي: سالم إن شاء الله في الدنيا والآخرة، وقال لي: هذه خرقة السادات". ص: 156. (تح: نفيسة الذهبي، منشورات كلية الآداب، الرباط،سلسلة رسائل وأطروحات رقم: 33، ط: 1، 1996).

[5] ينظر:عبد الله بنصر علوي، من شخصيات الزاوية العياشية (أبو سالم العياشي)، دعوة الحق، ع: 248،ماي 1985. وكذلك ع: 252، شتنبر 1985. وخالد التوزاني، أبو سالم العياشي: ملامح من حياته وأدبه، نفحات الطريق، ع: 14، من 20 إلى 26 أبريل 2012، ص: 20-21.

المجلد : 12/ العدد : 02 / الشهر: أوت/ السنة: 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

المالكي، المغربي الإدريسي. ولد لليلة بقيت من شهر شعبان سنة (1037هـ: 4 ماي 1628م) بآيت عياش بالقرب من قرية تازروفت– على بعض أودية أحد روافد واد زيز- التي كان انتقل إليها أجداده من قصر ولتدغير من فجيج.

وصفه أحد الشيوخ بقوله: "نادرة الوقت غريب الزمان الفقيه المحدث الصوفي(...) عاش بالله لله عبد الله، من خلص حزب الله في حماية الله" [1]. ووُصف كذلك، بـ"الشيخ الصالح العالم، العامل الناجح، المحدث المحقق، والعلامة المدقق، زبدة أهل الفضل والصلاح، ومعدن الحلم والسماح، فخر المتقين السالكين، وعين أرباب اليقين"[2].

تلقى أبو سالم العياشي تعليمه الأول على يد والده محمد بن أبي بكر [3] (ت1067هـ) مؤسس زاوية آيت عياش التي تحولت فيما بعد إلى اسم زاوية حمزة بن أبي سالم عبد الله العياشي (ت 1030هـ)، واشتهرت أيضا باسم الزاوية العياشية [4]، وهي المكان الذي نمت فيه مدارك أبي سالم، وصفت طريقته على أيدي شيوخها وعلمائها فضلا عن أثر والده، قبل أن يرحل في طلب العلم إلى بلاد درعة حيث الزاوية الناصرية، ثم إلى فاس حيث جامعة القرويين، "ولم تتح له الظروف التي عرفها المغرب أواسط القرن الحادي عشر الهجري أن يرحل إلى الدلاء ولا إلى مراكش، فاستغنى عن زيارة الأولى بالعلاقات الودية والمراسلات العلمية والأدبية التي كانت بينه وبين بعض علماء الزاوية الدلائية كأبي علي الحسن بن مسعود اليوسي... كما لم يزر الثانية مكتفيا بصحبة أشهر علمائها أبي بكر بن يوسف السكتاني" [5]، وذلك أثناء رجوعه من الحج في رحلته الأولى سنة 1059هـ. احتل أبو سالم العياشي مكانة مرموقة بين أبناء عصره، نظرا لما تميز به من افتتان بالأسفار، وولع بطلب العلم حيثما كان، إذ لم يكن طالب دنيا وإنما طالب ذوق وعلم، كما يقول عن نفسه:

ولستُ بطالب دُنْيا فما لي ... ولِلدُّنيا التي تردي وتضْنِي
ولكن طَالبٌ ذَوْقًا ويُسْرا ... وعِلْمًا صَالِحًا يُغني ويُقني [6]

---

[1] وصفه بذلك الشيخ الملا إبراهيم (ت1101هـ)في رسالته المسماة: "الإلماع المحيط بتحقيق الكسب الوسط بين طرفي الإفراط والتفريط"، ينظر: ماء الموائد، ج: 3، ص: 639.

[2] وصفه بذلك الشيخ محمود السالمي القدسي. ينظر: ماء الموائد، ج: 4، ص: 1162.

[3] ترجم له أبو سالم في اقتفاء الأثر، ص:103. ووردت ترجمته أيضا في: نشر المثاني للقادري، ج:2، ص:83. والتقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر في أخبار وأعيان المائة الحادية والثانية عشر، للقادري، د. وتح: هاشم العلوي القاسمي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط:1، 1983، ص: 129.

[4] نظمت المكتبة الوطنية للمملكة المغربية يوما دراسيا حول: الزاوية العياشية: تاريخ وتراث، وذلك بمقر المكتبة بالرباط يوم 24 أبريل 2010. خُتم بتوقيع اتفاقيات ترميم وتأهيل مخطوطات هذه الزاوية.

[5] عبد الله بنصر العلوي، أبو سالم العياشي المتصوف الأديب، مرجع سابق، ص:84 و65.

[6] ماء الموائد، ج:1، ص: 189.

المجلد : 12/ العدد : 02 / الشهر: أوت/ السنة: 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

مما أسهم في بلورة تجربته، وفي تنوع مشاهداته وانطباعاته [1]، فالرجل أخذ عن الأعلام الذين أدركهم بالمغرب، ثم رحل ثلاث مرات إلى البلاد المشرقية ليتتبع العلم في مظانه وعند أربابه ويرمي بسهم مصيب مع أصحابه [2]، فقد عُرف عن المغاربة تعلقهم بأرض المشرق ، "فهو مهد ثقافتهم العربية الإسلامية، ومنبع لغتهم العربية، والمصدر الأول لآدابهم" [3]، فكانوا ينتجعون الشرق لاستتمام المعارف وتبادل الإجازات، وكان المشارقة أيضا "يتوقون إلى مبادلة علمائنا وجوه النظر" [4]. وهكذا لم يترك العياشي عالما إلا قصده وسمع منه، ولا متصوفا إلا زاره وتبرك بما عنده، فأفاد واستفاد، حتى اجتمع له من الأسانيد والروايات والإجازات ما لم يجتمع لغيره من معاصريه بدوا وحضرا [5]، و"اتسمت شخصيته باطلاعها الوافر على علوم الحقيقة والشريعة والأدب. وبذلك، شكل أبو سالم العياشي "ظاهرة علمية فريدة في عصره" [6]، أهلته للتفرغ للتدريس والتأليف سواء في بعض البلاد المشرقية مثل المدينة المنورة، أو في مراكز العلم المشهورة بالمغرب مثل فاس، وكذلك بزاويته في مسقط رأسه بآيت عياش. إلى أن توفي –رحمه الله- بعدوى الطاعون يوم الجمعة 18 ذي القعدة سنة (1090 هـ: 1679م)، مخلفا وراءه مؤلفات كثيرة [7] وخزانة عامرة بنفائس المخطوطات وغرائب الآثار.

الرحلة: أشواق وأذواق

لم يكن خوض الرحلة أمرا سهلاً بالنسبة لأبي سالم العياشي، وخاصة في رحلته الأولى إلى الحج سنة 1059هـ حيث كان عمره 23 سنة، و "الشباب إذ ذاك ناعمة أغصانه، والهوى شديد على القلب عصيانه،وفنن الصبا ناعمة أوراقه،والوطن حبيب يشق فراقه" [8]، ومع ذلك، استسهل "قطع

---

[1] نفيسة الذهبي، من مقدمة تحقيقها لكتاب: اقتفاء الأثر بعد ذهاب أهل الأثر، لأبي سالم العياشي، مصدر سابق، ص:47.

[2] قال أبو سالم: "فأخذت عن الأعلام الذين أدركتهم بالمغرب قليلا، فلم يشف ما لديهم مما أجد غليلا ولا برأ عليلا، لأنهم اقتصروا من الكتب على ما اشتهر(...) فلما من الله تعالى بالرحلة إلى البلاد المشرقية (...) تتبعت ذلك في مظانه وعند أربابه، ورميت والحمد لله بسهم مصيب مع أصحابه"، ينظر: اقتفاء الأثر بعد ذهاب أهل الأثر، مصدر سابق، ص: 100-101.

[3] أحمد العراقي، التأثير المشرقي في الشعر المغربي زمان العلويين من خلال فن المعارضات شعر حمدون بن الحاج نموذجا، ضمن: الأدب المغربي من خلال تواصلاته، مرجع سابق، ص:31.

[4] عبد العزيز بن عبدالله، تواكب الفكرين الصوفي والأدبي، مرجع سابق.

[5] حول شيوخ العياشي الذين تجاوز عددهم المائة، ينظر مقدمة تحقيق: اقتفاء الأثر بعد ذهاب أهل الأثر. وأيضا: عبد الله بنصر العلوي، أبو سالم العياشي: المتصوف الأديب، صص: 88-96. وكذلك: رحلة ماء الموائد ومقدمة تحقيقها للدكتور خالد سقاط.

[6] خالد سقاط، من مقدمة تحقيقه لرحلة "ماء الموائد"، مصدر سابق، ص:42.

[7] ينظر مؤلفات الرجل ضمن: عبد الله بنصر العلوي، أبو سالم العياشي المتصوف الأديب، مرجع سابق، صص: 111-139.

[8] ماء الموائد، ج:1، ص:5.

المجلد : 12/ العدد : 02 / الشهر: أوت/ السنة: 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

تلك العلائق كلها"[1]، وركب متون المجاهل مع ركب يؤمون البيت العتيق، وقد كان يظن أن مشاهدة تلك الأماكن المقدسة تشفي من أليم الشوق عليلا. لكن، بمجرد أوبته إلى وطنه وانتهاء أمد الغيبة، حنَّت نفسه للرجوع إلى الحج مرة أخرى،فيصف شوقه لمرافقة ركب الحج قائلا: "فلا يأتي أوان ارتحال الركب إلا أطاعت الجفون داعي السكب، وحنت حنين الثكلى الواله إلى معاهد الرسول وآله، ودب بين الجلد والعظام دبيب الشوق إلى تلك المشاعر العظام"[2]. وهو وصف يبين بجلاء، مدى الشوق الذي زاد بزيارة البقاع المشرفة، فعوض أن يزول الحنين أو تخف حدته، نجده يزداد ويعلو فيسيطر على وجدان أبي سالم وكيانه، فلا تقر له عينا حتى يحقق بغيته في الرحلة مرة ثانية سنة 1064هـ، "ولم يخمد مع ذلك متأجج نار الغرام"[3]، فيعقد العزم على الحج مرة ثالثة سنة 1069هـ لولا أن ظروف المغرب الصعبة في تلك السنة حالت دون رحلته، فانتظر تغير الحال من اضطراب إلى استقرار، لكن "لم يزل أمر الفتن يتفاقم ويربو، والهمة عن قصدها المحمود لا تنبو"[4]، حتى حلت سنة 1072هـ التي عرف فيها المغرب أوج أزمته، فيصف العياشي مظاهر تلك الأزمة وصفا مؤثرا تقشعر منه الأبدان، إذ يقول:"وأضرم الجوع في سائر الأرجاء ناره، فتولد منه من الفتك والحرابة ما أعلى تفريق الكلمة مناره،وتطاير في كل أفق شَراره،وأهان خيار كل قطر شُراره، واتخذت البدعة شعارا، والزندقة دثارا، وفر الساكن من بلده، والوالد من ولده"[5]. حيث أيس العياشي من السفر إلى الحج، بعد العزم القوي،يقول: القوي،يقول: "وطويت شقة ذلك العزم أي طي،فلحقني من التخلف كرب شديد،(...) فاستروحت من ذلك العناء والألم إلى مدح النبي ﷺ،فأنشأت منها عدة قصائد في أيام مولده الشريف (...) أظهرت فيها التودد والتعطف، وأكثرت التشكي والتبكي والتلهف على ما فات من القصد الجميل في هذه السنة (...) وأطنبت في الاستغاثة إلى الله بنبيه الكريم أن ييسر لي في زيارته من فضله العظيم"[6]، وظل على تلك الحال القلقة، حتى جاءته رياح الرحمة من حيث لا يحتسبها،يقول: "وما كنت أطمع أن ذلك يكون عن قريب،بل هو عندي أغرب من غريب"[7]. فأن يكون حلم تحقيق الرحلة أغرب من غريب، يجعل الرحالة مستغربا من توالي الأحداث الميسرة للرحلة، حيث انقلبت الموانع إلى بواعث محفزة للسفر، وفي ذلك بعض العجب.

رحلة الحج وعجيب المشقّة

---

[1] المصدر والصفحة نفسهما.
[2] المصدر والصفحة نفسهما.
[3] ماء الموائد، ج:1،ص:7.
[4] المصدر والصفحة نفسهما.
[5] المصدر والصفحة نفسهما.
[6] المصدر نفسه،ص:8.
[7] المصدر نفسه، ص:8.

المجلد : 12/ العدد : 02 / الشهر: أوت/ السنة: 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

إذا كان السفر في العادة قطعة من العذاب، فإنه في حال الرحلة إلى الحج دواء من كل الأسقام، فكيف لا يشفى من الأدواء من كانت وجهته مكة وطيبة ومرغ أقدامه في رمال المحبة المحمدية؟ والعجيب أن يقع الشفاء في الطريق مع توالي المراحل، فكيف إذا بلغ الرحالة مقصوده ونال القرب من البقاع الشريفة، يقول العياشي: "وقد شفاني الله في هذه الطريق المباركة من جميع ما كان فِيَّ قبل ذلك من الأمراض الظاهرة والباطنة، (...) وقد أنعم الله علينا بنعم سوى ذلك لا تحصى وأيادي لا تستقصى"[1].ويقول أيضا: "ومما أنعم الله به علي أن أعطاني من القدرة على المشي ما لم أكن أعهد من نفسي بعضه (...) فصرت اليوم أسير مرحلة كاملة، وإما نصفها أو أزيد أو أقل فكثير"[2].

هكذا تصبح رحلة الحج علاجا للأمراض الظاهرة والباطنة، وقد أحس العياشي بقوة في جسده بعد انتهاء فترة المجاورة حيث سيقرر أداء مناسك الحج مشيا على الأقدام، يريد بذلك أن يحج كما يحج الفقراء والضعفاء دون متاع ولا ركوب، في حجة وصفها بـ"حجة صعلوكية"، وبذلك يتمكن من تحقيق كيفيات الحج كلها؛ فبعدما تيسر له الحج وفق أوجه الإحرام الثلاثة كلها-كما قال: "تقدمت لي حجات والحمد لله مفردا؛ فقصدت استيعاب أوجه الإحرام الثلاثة للاختلاف المشهور في أيها أفضل" [3]- أراد أن يحقق أشكال الحج كلها أيضا، فبعدما حج راكبا مثلما يفعل من يَسَّر الله عليهم، أراد أن يجرب الحج ماشيا مثلما يحج فقراء المسلمين.

هكذا، قرّر العياشي في آخر حجّة يقوم بها بعد انقضاء أمد المجاورة، أن يحجّ بغير زاد ولا دابّة، فيصف حجّته تلك بقوله: "خرجنا من مكة راجلين بلا دابّة، وقلت لأصحابنا: قد حججنا مرارا رُكْبانا فتعالوا بنا نحج في هذه المرة مشاة، لتمكن ذلك لنا لخفة الحال وقلة الأتباع، وليست عندنا دواب تشوشنا ولا خباء يثقلنا؛ فنأوي إلى المساجد والكهوف، فنجعلها حَجَّةً صعلوكية عسى الله أن يرحمنا بالتزيي بزي الفقراء والضعفاء" [4]. وقد كان في مقدور أبي سالم أن يحج بيُسر وراحة، فيركب الإبل وينزل بأماكن مظلّلة، مثل شيخه أبي مهدي الثعالبي الذي كان "نازلا في رواق مظلّل" [5]، لكن أبا سالم كسر من نفسه الميل إلى ا لترف، وأراد التزيي بزي الضعفاء، فنال حظا غير ممنون من المشقة، وقد وصف حاله بعرفات وصفا دقيقا بقوله: "ذهبنا إلى الموقف في حرّ شديد، ما رأيت طول عمري مثله، وبلغ مني الجهد غاية، وتذكرت حر القيامة. (...) فكنت أنظر يمينا وشمالا عسى أن واحدا أعرفه فآوي إلى خبائه، فَمَنَّ الله علي، فلم أر أحدا، وتحاملت على أشد ما يكون من التعب ومقاساة الحر

[1] المصدر نفسه، ص: 117.
[2] المصدر نفسه، ص: 20.
[3] ماء الموائد، ج: 3، ص: 845.
[4] ماء الموائد، ج: 4، ص: 1098.
[5] ماء الموائد، ج: 4، ص:1099.

المجلد : 12/ العدد : 02 / الشهر: أوت/ السنة: 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

الشديد، سيما بعد أن دخلنا مزدحم الناس وانضغاطهم وامتزاج حرارة أنفاس الحيوانات بحرارة الشمس وثوران غبار الأقدام على الرؤوس، حتى لا يكاد الإنسان يشك أنها نار لظى" [1]. وعلى الرغم من صعوبة هذا الموقف، إلا أن أبا سالم يتلذذ به، حيث يقول عن نار الحر:"إلا أنها بحمد الله لا يصلاها إلا السعيد الذي آمن وأقبل على الله تعالى، وتحاملنا في ذلك الحر مع المشقة التامة" [2]. والملاحظ أن تلذذ رحالتنا بهذا الحر، راجع لكونه كان يكابده في سبيل الله، فيستحضر أجر الصبر والتحمل. بخلاف موقف آخر، اكتفى فيه بالتعجب والدهشة ولم يتجاوزه إلى الاستمتاع واللذة، وذلك عندما تعجب من تعاقب الحر والبرد في أحد الجبال وهو في طريقه إلى الطائف، حيث قال: "وتعجبنا من صنع الله وبديع قدرته؛ فقد قاسينا أول النهار من شدة الحر وسمومه ما كادت العظام منه تذوب وتنفطر القلوب، وكابدنا من شدة البرد آخره ما ارتعدت المفاصل منه وكلت القوى عنه" [3].

بعد غروب شمس يوم عرفة يبتدئ النزول إلى مزدلفة، ولم تخل هذه المرحلة أيضا من مشقة عسيرة، حيث يصف رحالتنا ما أصابه فيها من نصب، قائلا: "فنفرنا مع أواخر الناس على أشد ما يكون من التعب، فلم نصل إلى مزدلفة حتى قاسينا من التعب ما لا يزيد عليه (...) ثم سرنا رويدا نجر الأقدام على الأرض جرا (...) فبمجرد جلوسي ثار علي قيء وتدويخ حتى كدت أن يغشى علي، فبقيت عامة يومي لا أنتفع بنفسي، ويئست من طواف الإفاضة في تلك الأيام، وحلقت رأسي وأخرت الإفاضة إلى أن رجعنا من منى" [4].

هكذا، بعد انتهاء حجته هذه، والتي كابد فيها ما لا يوصف من المشقة، يعزم على الخروج من مكة إلى المدينة المنورة، فيكابد في ذلك صعوبات بالغة، منها ما يذكره بقوله: " سرنا مع رفقة ليس فيها أحد من أبناء جنسنا، وضاقت علينا الأرض بما رحبت، وأساء الأكرياء معنا في الركوب والنزول والحملان (...) وهبت ريح شديدة سموم تلفح الوجوه وتثير الأرض، حتى لا يكاد أحد يرى رفيقه. وظننا أن الناس لا يرتحلون في مثل ذلك، فارتحلنا وقاسينا ما الله عالم به من المشقة" [5].

يمكن أن يضاف إلى عجيب المشقة، تعجب أبي سالم من مشهد كنس العيون في مدينة واركلا ومدى المشقة البالغة التي تحصل أثناء ذلك، حيث يقول: " غريبة من غرائب هذه البلدة استخراج عيون الماء الغزير بحفر الآبار؛ فيحفرون بئرا نحوا من خمسين قامة ثم يصلون إلى حجر مصفح على وجه الأرض، فينقرونه، فإذا نقروه فاض منه الماء فيضا قويا،ويطلع كذلك بسرعة إلى فم البئر ويصير

[1] ماء الموائد، ج:4، ص:1100.
[2] ماء الموائد، ج: 4، ص:1099.
[3] ماء الموائد، ج:3، ص: 856.
[4] ماء الموائد، ج: 4 ص:1100.
[5] ماء الموائد، ج: 4، ص:1103.

المجلد : 12/ العدد : 02 / الشهر: أوت/ السنة: 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

عينا،فإن لم يُتدارك الحافر بالجذب أغرقه الماء.ومتى احتاجت العين إلى الكنس حصلت لمتعاطي كنسها مشقة كثيرة، وربما تركوها بلا كنس للمشقة، فتندثر .وقد أخبرني من أصحابنا من عاين كنسهم للعيون بأمر غريب".[1]

يبدو أن المشقة عندما تتجاوز حدود المألوف وتخرج عن المعتاد في الأسفار، تصبح نوعا من العجيب، وتتحول إلى وسيلة فنية لإثارة انتباه المتلقي، حيث تحضر "متعة النص المؤلمة" [2]، ولعل ذلك ما يعني أن للعياشي رؤية خاصة للعجيب، فما هي أنماط العجيب في رحلته؟.

تجليات العجيب في رحلة ماء الموائد

على الرغم من محاولة بعض الباحثين اقتراح تصنيفات للعجيب تبعا لمعايير متباينة؛ مثل الموضوعات[3] أو المصادر [4] أو طبيعة الخرق [5]، إلا أنها عبرت عن نظرة معينة في التلقي، يصعب تنزيلها على عجيب رحلة "ماء الموائد" لاعتبارات منهجية وموضوعية، أبرزها أن تنظيرات هؤلاء الباحثين انصبت على متون "أدبية" [6] لها خصوصياتها التي تختلف عن خصوصيات الكتابة الصوفية، هذه الأخيرة تعبر عن تجربة روحية تتداخل فيها عناصر الخيال [7] والمقدس والبركة. ومن ثم، يمكن الحديث عن أنماط العجيب في رحلة "ماء الموائد" وفق النسق الصوفي القائم على الترقي في السلوك إلى الحق.

---

[1] ماء الموائد، ج:1، ص: 74.

[2] Roland Barthes, Le plaisir du texte, Editions du Seuil, Paris, P :13.

[3] اقتراح تودوروف: موضوعات الأنا وموضوعات الأنت، ينظر: تزفتان تودوروف، مدخل إلى الأدب العجائبي، تر: الصديق بوعلام، تق: محمد برادة، دار الكلام، الرباط، ط1، 1993، صص: 121-175. واقتراح جان ملينو (Jean Malino) الذي رصد الموضوعات (التيمات) المتواترة في معظم الحكايات العجيبة وقد حصرها في ستة أشكال وهي: الجن والأشباح، الموت ومصاص الدماء، المرأة والحب، الغول، عالم الحلم وعلاقاته مع عالم الحقيقة، والتحولات الطارئة على الفضاء والزمن. ينظر: شعيب حليفي، شعرية الرواية الفانتاستيكية، دار الحرف للنشر والتوزيع، القنيطرة، ط: 2، 2007.، ص:24. وتصنيف شعيب حليفي: الامتساخ والتحول، وتغير السببية، والاختلالات، ولعبة المرئي واللامرئي. ينظر المرجع نفسه، صص: 75-77.

[4] اقترح فيبر E . Webber تصنيفا للعجيب وفق مبدأ: من/ما يصدر عنه الخارق، ينظر: عبد الحي العباس، بنية الخارق في سيرة الملك سيف بن ذي يزن: معالجة وصفية تصنيفية، أطروحة لنيل الدكتوراه، خزانة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهراز، فاس، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، (1999-2000)، صص:207-210.

[5] اقترح عبد الحي العباس تصنيف الخارق في سيرة سيف بن ذي يزن وفق معيارين: خارق عام: (مثلا الخارق للطبيعة) يحظى بإجماع كل أصناف المتلقين، وخارق خاص: نوع معين من أنواع التلقي. ينظر: عبد الحي العباس، بنية الخارق في سيرة الملك سيف بن ذي يزن، مرجع سابق، ص: 218. وهناك تصنيفات أخرى لباحثين آخرين مثل عبد الفتاح كيليطو، وسعيد جبار وعبد النبي ذاكر وجعفر ابن الحاج السلمي وسعيد يقطين وجاك لوكوف وعبد الفتاح الشادلي، وغيرهم.

[6] مثل سيرة سيف بن ذي يزن أو ألف ليلة وليلة وغيرهما.

[7] الخيال ليس غير واقعي: Limaginairen est pas irréel ، ينظر:

Mircea Eliade, Mythes, reves, et mystères , Gallimard, Paris, 1957, p.131.

المجلد : 12/ العدد : 02 / الشهر: أوت/ السنة: 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

يمكن القول إن العجيب في رحلة "ماء الموائد" يتمظهر في نمطين متعارضين هما: البناء والهدم، الأول له صلة بالترقي في مدارج السلوك الصوفي تكملا وتجملا، بينما الثاني له صلة بالتقهقر في السلوك، أي النزول إلى الأسفل في دركات الصفات. وبين البناء والهدم يحضر الولي الحقيقي ومدعي الولاية، فالأول صوفي يصدر عنه العجيب القدسي [1]، والثاني مقلد يدعي الصلاح ويصدر عنه عجيب الوهم أو الهدم، والعلاقة بين الاثنين وإن كانت تبدو متناقضة في الظاهر، إلا أنها تؤسس لعلاقة تكامل، حيث لا يتم بناء الإنسان الكامل في غفلة من الشيطان أو النفس، كما لا يتم بناء صفة حسنة إلا على أنقاض أخرى سيئة. وكلما تقدم الصوفي في السلوك وحقق بعض الإنجازات في كسر شهوات نفسه وكتم صوت إبليس، حنت النفس إلى دركاتها وطوّر الشيطان أدواته، فيكون البناء أليما، لكنه ألم لذيذ مادام ألما في سبيل الوصول إلى حضرة الحق عز وجل.

1 - عجيب الهدم

في السياق الصوفي لا يعتبر كل عجيب مُعْجَباً به؛ فكما تكون بعض الحكايات جندا من جنود الله تعالى، يقوي بها قلوب المريدين [2]، تشكل حكايات أخرى جندا من جنود إبليس، يشوش بها على سير السالكين ويعكر صفو سلوكهم؛ مثل: الصلاة بغير وضوء [3]، ورمي ثياب الموتى [4]، واحتراف السرقة

[1] يراد بالقدسي "كل ما يعبر عن/ينتج عن/ يتجلى من خلاله أو بواسطته عالم التنزيه والطهارة والبركة والارتفاع والسمو والخصوبة والغنى، أي ما يوجد تمام الوجود، حق الوجود، الصافي أو النقي والكامل"، ينظر: الميلودي شغموم، المتخيل والقدسي في التصوف الإسلامي: الحكاية والبركة، منشورات المجلس البلدي بمدينة مكناس، ط:1، 1991، ص: 19. أما المقدس فهو يعانق في الوقت نفسه كلا من الطاهر والدنس، ينظر: نور الدين الزاهي، المقدس الإسلامي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط:1، 2005، ص:27. ينظر أيضا: يونس لوليدي، المقدس والأنواع الحكائية (مصطلحات ومفاهيم)، فكر ونقد، ع: 26، س: 3، فبراير 2000، ص: 19.

[2] أبو القاسم القشيري، الرسالة القشيرية،تح: عبد الحليم محمود، ومحمود بن الشريف، مطابع مؤسسة دار الشعب، القاهرة، د.ط، 1989م، ص: 353.

[3] تعجب العياشي من صنيع طائفة من الأباضية، حيث يقول: "دخل الناس للصلاة ابتدروا زوايا المسجد يتيممون،فقلت: عجبا هؤلاء كلهم من ذوي الأعذار! ثم وقع في نفسي أنهم عُزَّابة روافض. ثم سألنا بعد ذلك، فإذا المسجد مسجدهم يصلون فيه (...) يوافقون المعتزلة في أكثر عقائدهم، كنفي الرؤية والقول بخلق القرآن، ويبغضون بعض الصحابة". ماء الموائد، ج: 1، ص: 71.

[4] من المشاهد العجيبة التي أثارت استغراب أبي سالم في مدينة واركلا، مشهد الثياب الملقاة في باب المدينة، حيث يقول: "وفي باب المدينة التي نزلنا من قبله خرق كثيرة من صوف وكتان، وأكثرها صحيحة لا قطع فيها، يصلح للانتفاع، وليس مثلها مما يرمى به في العادة، وتعجبنا من كثرتها مع صحتها، ولا نعلم السبب في عدم أخذ الناس لها وتركهم للانتفاع بها، وهي لو جمعت لكانت أحمالا، وسمعنا هناك أنها ثياب الموتى، وأن من مات ألقيت ثيابه التي عليه عند الموت هناك، ولا تمس، ولا نعلم صحة ذلك، والله أعلم". ماء الموائد، ج:1،ص: 74.

المجلد : 12/ العدد : 02 / الشهر: أوت/ السنة: 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

بالاعتداء على ركب الحج [1]، وخيانة الأمانة [2]، وغيرها من الأمور التي تعجب منها العياشي، وأثارت استغرابه، وذلك مقصود وصف "عجيب الهدم"؛ أي ذلك العجيب الذي يؤدي تقليده إلى الهدم وتنشئة الوهم، فيكون ذكره في رحلة "ماء الموائد" من باب التحذير منه والأسف على خَرْقٍ أَخْرَقٍ للعادة؛ فخرق العادة كما قد يكون بابا للترقي والسمو، يمكن أن يكون كذلك بابا للرجوع إلى الخلف وإحياء صفات قديمة مذمومة؛ كالغدر والطمع وترك الحياء.

من نماذج "عجيب الهدم" التي يذكرها العياشي في رحلته، أعجوبة في ترك الحياء، حيث يقول:"حكى لي بعض المجاورون أنه وجد في بعض المواسم رجل على امرأة في الحرم الشريف، فحملا إلى الحاكم؛ فشهدت البينة أنها زوجته، وقيل له: ما حملك على ما فعلت؟ فقال: إنه لا أولاد لنا فرجوت أن تحمل المرأة ببركة هذا الحرم، فعذر بجهله ولم يعاقب" [3].ومصدر العجب لا يكمن في الفعل الشنيع، بقدر ما يظهر في خرق الحياء داخل الحرم الشريف، مع تبرير الفعل بالبركة، فالعذر أسلم من الزلة وأطهر من الفعل المستقبح، ولذلك عُذِر الرجل لسلامة نيته وجهله في الآن ذاته بشرف المكان المقدس.

2 - عجيب البناء

يمكن الحديث عن نوع من العجيب الذي يستهدف بناء عمران الإنسان وتنشئته على صفات الكمال باعتبارها غاية صوفية كبيرة. ومن نماذج هذا النمط الذي تحفل به "ماء الموائد"، يمكن أن نذكر الآتي:

أ - الكتب العجيبة

لا شك أن رقي الأمم يقاس بطبيعة العلاقة مع الكتاب [4]، وقد عُرف عن السلف حرصهم على الكتب تأليفا وقراءة وضبطا،وقد وقف العياشي عند بعض الكتب على أنها غريبة في تأليفها، ونادرة في

---

[1] تعجب أبو سالم العياشي من عرب الجبل الأخضر، فوصفهم بقوله: "لا حرفة لهم بعد تنمية مواشيهم إلا النهب والغارة، قل ما مر بهم ركب فسلم من إنشاب الحرب بينهم وبينه بسبب غدرهم وفتكهم عند اشتغال الناس بالسوق معهم. وقد وقع لنا ذلك معهم مرارا، وأغرب من ذلك أنهم لا يعرفون السرقة ليلاً، فيتحرس الناس منهم نهارا خشية النهب والغارة، وبالليل يبيت الناس رقودا مطمئنين لا تسرق لهم حاجة. وما ذلك، والله أعلم، إلا لانقطاعهم عن العمل وتوحشهم، والسرقة في الغالب إنما تعهد حيث يكثر العمران وتجتمع أجناس من الناس، وتعمر أسواق ويوجد بيع وشراء، وأما هؤلاء فأعداؤهم بعيدون منهم لا يقدرون منهم إلا على الغارة المرة بعد المرة، وفيما بينهم يؤمن بعضهم بعضا، فألفوا ذلك.ونوادر هذا الجبل في رخاء الإدام وغفلة أهله عن قيمته وكثرة خصبه وبيعهم لبناتهم وأخواتهم أشهر من أن يذكر". ماء الموائد، ج:1، ص: 148.

[2] تعجب أبو سالم العياشي من تلطف بعض الفلاحين ولين خطابهم عند نصب شبكة الخداع للمغتر من الحجاج، فيودع عندهم الإبل ويتركها عندهم أمدا للإقامة طلوعا ورجوعا، لكن عند المفاصلة قلما ما ينفصل معهم أحد بطيب نفس". ماء الموائد، ج:1، ص: 170.

[3] ماء الموائد، ج:2، ص: 360.

[4] يراجع مقال: تقديس الكتب. محمد أيت لعميم. مجلة فكر ونقد.ع 58. يمكن قراءة المقال من خلال الرابط التالي:

المجلد : 12/ العدد : 02 / الشهر: أوت/ السنة: 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

موضوعها،وقليلة الانتشار في العالم الإسلامي.ولذلك، خصص حيزا مهما من رحلته،للحديث عن بعض ما وقع في يده من كتب عجيبة، فنجده يورد أسماء هذه الكتب ثم ينتقي منها نصوصا،لاعتقاده وجود فوائد فيها، فيذكر بعضها بكمالها وتمامها ويقتبس من الأخرى بعض الفوائد، ولعل ذلك ما يؤكد جُود الرحالة بموائد العلم التي يزيدها ماء الوفاء لأهل العرفان مذاقا خاصا.

من تلكم الكتب الغريبة التي عثر عليها العياشي بمكة، رحلة محمد بن رشيد السبتي، حيث انتقى منها نقولا متعددة[1]. وكذلك، كتاب "تاريخ الإسلام" للحافظ أبي عبد الله الذهبي[2]،حيث يقتبس منه ما يتحف قارئ رحلته ببعض النقول العجيبة في ذلك الزمان [3]. وكتاب "طبقات الصوفية" للمنوي[4]،والذي استمد منه تراجم بعض أئمة الصوفية كالشيخ الشاذلي[5]، وتعجب من كونه كان رجلا ضريرا[6]. كما اطلع العياشي على كتاب "إتحاف الورى بأخبار أم القرى" للشيخ نجم الدين عمر بن فهد(ت 885هـ)، ونقل منه بعض الأخبار الغريبة، "ومنها، حملت ملابس جسم سليمان بن عبد الملك لما حج على سبعمائة بعير، وقيل تسعمائة بعير"[7]. كما طلع على رسالة في علم الحقائق تسمى: "التحفة المرسلة

---

http://membres.lycos.fr/abedjabri/n58_02laamime.htm

[1] تنظر تلك النقول ضمن: ماء الموائد، ج: 4، صص:1030-1056. يقول أبو سالم: "ولنذكر بعض ما قيدته بمكة من كتب غريبة عثرت عليها بمكة. فمنها: رحلة الشيخ المحدث محمد بن رشيد السبتي". المصدر نفسه، ص: 1030. والقاسم المشترك في ما قيده من رحلة السبتي هو الغرابة والندرة التي تفضي إلى عجيب الأخبار والحكايات. ينظر مثلا: ص: 1054 من رحلة "ماء الموائد".

[2] يقول عنه: "وهو كتاب حافل لم يدع شاذة ولا فادة مما تتشوق إليه النفس من علم التاريخ إلا أودعها كِتابَه، مع الاختصار والإتقان، كأنما جُمعت له الدنيا وأهلها في صعيد واحد". المصدر نفسه، ص: 1057.

[3] فمن جملة ما نقله؛

ذكره"فيحوادثسنةسبعوأربعينوستمائةوفيهاوصلإلىبغدادأبومنصورالأصبهاني،رجلكهلصغيرالخلقةجدا؛طولهثلاثةأشباروثلاثةأصابع،ولحيتهطولهاأكثرمنشبر،فحُملإلىدارالخلافة،فأنعمعليهودارعلىالأكابر .

وفيالسنةالتيقبلهاولدتامرأةببغدادأربعةأنفسفيبطن،فطلبهُمُالخليفةُورآهموتعجببمنهم،ثمأمرلهمبستمائة". ماء الموائد، ج: 4، ص: 1060.

[4] يتعلق الأمر بكتاب: الكواكب الدرية في مناقب الصوفية، لمحمد عبد الرؤوف المنوي الحدادي (ت1031هـ). وردت ترجمته ضمن: نشر المثاني للقادري،ج:2، ص:393. كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، حاجي خليفة، دار الفكر، بيرروت، 1982، ص: 1522.يقول عنه: "ومن الكتب الغريبة التي رأيتها بمكة "طبقات الصوفية" للمنوي، وقد أجاد فيها سيما للمتأخرين من الصوفية، فلم أر أخبارهم مستوفاة في غيرها".ماء الموائد، ج: 4، ص: 1060.

[5] نور الدين أبي الحسن علي بن عبد الله بن عبد الحميد المغربي الشاذلي (ت656هـ).ينظر:كشف الظنون، ج:1ص: 661،والأعلام،خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت لبنان،ط: 5، 1980 ج:4ص: 350. وكذلك كتاب: عبد الحليم محمود، أبو الحسن الشاذلي الصوفي المجاهد والعارف بالله، دار الكاتب العربي، القاهرة،د.ط، 1967.

[6] يقول أبو سالم: "وما ذكر من كونه ضريرا أمرٌ مستغربٌ، مع ما عرف له من السياحات في البلاد البعيدة شرقا وغربا، وسكنى الجبال والمغارات وقطع المفاوز وحده، وهذه الأمور يتعذر مثلها عادة من الضرير! (...) إلا أن الذي يظهر لي من كلامه أن ذلك حصل له في آخر عمره". ماء الموائد، ج: 4، ص: 1062.

[7] المصدر نفسه، ص: 1063.

المجلد : 12/ العدد : 02 / الشهر: أوت/ السنة: 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

إلى رسول الله ﷺ" للشيخ محمد بن فضل الله الهندي (ت 1029هـ)، والتي ذكرها العياشي بتمامها في رحلته[1]. كما وصف "كتاب"الجفر الكبير" بأنه"قل أن يوجد في الدنيا"[2].

من الكتب التي لم يسمع بها العياشي في المغرب [3]،كتاب "طبقات السبكي"، حيث انتقى منه بعض الفوائد[4]، وقد عبَّر رحالتنا عن أسفه الشديد ل عدم تمكنه من رؤية بعض المؤلفات [5]، نظرا لضياع خزانة من الكتب النفيسة والغريبة للشيخ أبي مهدي عيسى الثعالبي، بسبب حادث السيل في مكة؛ حيث "أتى الماء عليها كلها، ولم يسلم منها شيء، وكانت نحو الثمانين سفرا فيها من نفائس الكتب وغرائبها التي لا تكاد توجد في غيرها"[6].

لم يكتف رحالتنا بتتبع عجيب الكتب، بل أثبت في رحلته أيضا بعض ما سمعه من شيوخه، ومن ذلك قصيدة:"ما شأن أم المؤمنين وشأني" [7]، التي سمعها من الشيخ أبي مهدي الثعالبي، وهي في فضل أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها،وأيضا خطبة النبي ﷺ الأخيرة من خطبه [8]، ذكرها العياش بتمامها على الرغم من أنها "نهاية في الطول توازي إحدى الطَّوْلِيَّيْن من القرآن"[9]، أي البقرة وآل عمران. عمران.

لا تتصل الغرابة بالكتب والنصوص الصوفية التي يقل تداولها عند أهل المغرب، وإنما كذلك بعض الرسائل الصوفية، التي يجتمع فيها ما قد يتفرق في غيرها، ومن ذلك رسالة الشيخ حسن بن علي العجيمي الذي أجاز العياشي بكل الطرق الصوفية الأربعين"[10].

---

[1] المصدر نفسه، ج:2، صص: 503-509.

[2] المصدر نفسه، ج: 3، ص: 677.

[3] المصدر نفسه، ج: 3،ص: 756.

[4] أغلب ما انتقاه العياشي من هذا الكتاب تميز بالغرابة والندرة وخاصة في ذكر بعض ما يتعلق بمن ترجم لهم هذا الكتاب، ينظر ذلك ضمن: ماء الموائد، ج: 3، صص: 756-808.

[5] يقول العياشي: "وكثر أسفي على عدم رؤيتها لغرابتها، ولكون أكابر الفقهاء من قبل هذه القرون لم يظفروا منها بشيء". المصدر نفسه، ص: 827.

[6] المصدر نفسه، ص: 827.

[7] ينظر: ماء الموائد، ج: 3، صص: 930-933. والقصيدة لأبي عمران موسى ابن محمد بن عبد الله الواعظ الأندلسي المعروف بالمرتلي (ت604هـ). تحفة القادم لابن الأبار، تح: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي،ط:1، 1981، ص: 132.

[8] إن المأثور عن النبي ﷺ أن آخر ما قاله من الخطب هي خطبة حجة الوداع، أما هذه الخطبة التي ذكرها أبو سالم فهي فيما يبدو مركبة من خطب عدة وأحاديث مختلفة. كما لاحظ ذلك الدكتور خالد سقاط عندما علق على هذه الخطبة في تحقيقه لرحلة "ماء الموائد"، ينظر هامش، ص: 952، ج: 4، من رحلة ماء الموائد.

[9] المصدر نفسه، ص: 951.

[10] يقول العياشي بعد ذكر الرسالة: "وإنما ذكرتُ من ذلك شيئا قليلا، لِيَلاَّ تتشوق نفس الناظر في هذا الكتاب إلى من تنسب إليه هذه الطرق، لغرابة أكثرها بقطرنا، ما عدا الشاذلية وشعبها". المصدر نفسه، ص: 1005.

المجلد : 12/ العدد : 02 / الشهر: أوت/ السنة: 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

يمكن أن نضيف إلى ما انتقاه رحالتنا من غرائب مبثوثة في بعض الكتب النادرة، ما أَلَّفَهُ بنفسه، وأذكر في هذا السياق رسالته الفقهية الغريبة الوضع، والتي سماها: "رفع الحَجْرِ عن الاقتداء بإمام الحِجْرِ"[1]، حيث شوّق القارئ إليها بقوله: "هذه رسالة غريبة الوضع، عظيمة النفع، يحتاج إليها أهل مكة البررة الكرام"[2].

يتبين أن أكثر الكتب التي اطلع عليها العياشي بمكة وغيرها قد انتقى منها نصوصا، تفصح عن غرابة هذه المؤلفات من جهة، ومن جهة أخرى تفصح عن شدة إعجاب رحالتنا بها واغتباطه بمطالعتها والاستفادة منها، ولذلك حرص على إثباتها في الرحلة تحقيقا لقصده منها أن تكون ديوان علم.

ب - الزمن العجيب

يبدو أن الزمن أو الوقت عند الصوفية "عجيب"، فهو لا يقاس بالمسافات المألوفة، وإنما يقاس بالمسافة الروحية. وإذا كان العياشي يتحدث في مواضع كثيرة من رحلته عن "ضيق الوقت ومزاحمة الأشغال"[3]، ويعبر عن حسرته قائلا "ولو اتسع الوقت لزدت" [4]، فإن ذلك يوحي للمتلقي أن ما كتبه لا يمثل كل ما رآه في رحلته، حيث تخلى عن كتابة ذلك "المزيد" "خوف الملل وضيق الوقت" [5]، فقد كان يخشى أن يصيب الملل قارئ رحلته فتكون الكتابة تضييعا للوقت الذي هو أصلا ضيق ولا يكفي أبدا، ولعل ذلك شأن العمالقة من النفوس التي تحمل الآمال الكبيرة، فلا يتسع لها الزمن المألوف، ويصبح خرق العادة في الوقت بابا لجماليات خارقة وعجيبة.

هكذا، يتفاوت الزمن الذي يستغرقه ختم القرآن الكريم، بين من يستطيع ختمه بين الصبح وطلوع الشمس [6]. وهناك من يختم القرآن كاملا وهو أمام قبر النبي ﷺ [7]، وإن جاز ذلك عقلا

---

[1] ينظر متن هذه رسالة ضمن: ماء الموائد، ج: 4، صص: 1065-1095.

[2] المصدر نفسه، ص: 1065.

[3] المصدر نفسه، ج: 1، الصفحات: 23- 76- 191- 192. وفي ج:2، ص: 345-301- 329. وفي ج:3، ص: 712- 839. وفي ج:4، ص: 999- 1150-1207-1241- 1258-1267، وص: 1274.

[4] المصدر نفسه، ص: 118.

[5] المصدر نفسه، ج:2، ص: 512.

[6] مثل حافظ المغرب الشيخ أحمد المقري الذي ابتدأ عند خروجه بعد صلاة الصبح لزيارة قبر الشيخ محي الدين ابن عربي بدمشق ختمة من القرآن، لروح هذا الشيخ وقد ختمتها عند وصوله إلى المزار مع طلوع الشمس. ينظر: ماء الموائد، ج:3، ص: 808.

[7] من ذلك ما حكاه الشيخ (مرز الشامي الدمشقي) لأبي سالم " أنه لقي في بعض حجاته رجلا فقيها من أهل تلمسان حكى عنه أحوالا غريبة؛ منها أنه رافقه من مكة إلى المدينة، وكان يختم في كل يوم كذا وكذا ختمة، قال: فلما وصلنا إلى المدينة ودخلنا المسجد النبوي وتقدمنا للزيارة ووقفنا بالمواجهة، قال: فلما فرغت من الزيارة على الوجه المعتاد ورجعت إلى الروضة وجلست أنتظره فأبطأ علي هنيئة، فإذا هو داخل، فقلت له: ما أبطأ بك عني؟ فقال لي: ختمت ختمة أمام وجه النبي صلى الله عليه وسلم ثم جئتك". ماء الموائد، ج:3، ص: 808.

المجلد : 12/ العدد : 02 / الشهر: أوت/ السنة: 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

فكيف نفسر الكيفية التي يختم بها البعض القرآن الكريم أكثر من سبعين ألف ختمة في اليوم والليلة، كما يقول العياشي: "وأغرب ما سمعنا من ذلك ما حكاه غير واحد ممن ألف في كرامات الأولياء أن بعض أصحاب الشيخ أبي مدين[1] حج في السنة التي حج فيها الشيخ السهروردي، فذكر له أنه يختم في اليوم والليلة سبعين ألف ختمة. فبعث بعض ثقات أصحابه يختبر له ذلك، فوجده يطوف بالبيت وهو يقرأ، فتبعه من الركن إلى قريب من الحجر فختم عددا كثيرا من الختمات"[2]. وبغض النظر عن إمكانية حصول ذلك على سبيل الكرامة، إلا أن أبا سالم يلفت الانتباه إلى حدوث خرق عند السامع أيضا، "لأن سماع مثل هذا في هذه المدة لا يمكن عادة، وهذا قريب من ختمة في كل نَفَسٍ؛ فقد قيل إن أنفاس الآدمي المعتادة في اليوم والليلة نحو من ذلك العدد. وعلم الله أوسع من أن يحاط به"[3].

ت - الرؤيا العجيبة

تعرض العياشي في رحلته إلى بعض الكرامات والرؤى والقضايا "الغريبة"،والتي تعد من أدق الأشياء التي نادرا ما قد تخطر على بال فقيه، مثل حكم لباس الصوف المنتوف عن الغنم وهي حية[4]، أو استعمال طيب الغالية المستخرج من الزباد[5]. كما تحدث عن جملة من العجائب التي ارتبطت بتعمير الأرض؛ مثل خرق العادة في العناية بغرس الأشجار المثمرة[6]. أو المبالغة في إتقان صنعة المساجد

[1] شعيب بن الحسن التلمساني المغربي الأندلسي، أبومدين(ت 594هـ). ينظر ترجمته في: نيل الابتهاج بتطريز الديباج لأحمد بابا التنبكتي (ت 963هـ)،تق: عبد الحميد عبد الله الهرامة، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس،ط:1، 1989،ص:193. شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ابن العماد الحنبلي، طبعة مكتبة القدسي،القاهرة،سنة 1350هـ،ج:1،ص:303. شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، محمد بن مخلوف،دار الكتاب العربي، بيروت، ط: 1349،1هـ، ص: 164.الطبقات الكبرى،لابن سعد، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع (ت230هـ) تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط:1، 1968،ج:1، ص:164.

[2] ماء الموائد، ج:3، ص: 809.

[3] المصدر نفسه، ص: 808-809.

[4] يتعلق الأمر بنوع من الصوف "يأتي من بر الروم منسوجا، وتُتخذ منه الجوخات والأقبية الرفيعة، الشبيه بالحرير في لونه وصنعه ورطوبته. وهو لباس غالب علماء مصر والقاهرة والشام والحجاز وغيرها". حيث ناقش الصوفية هذه المسألة، بين من يحرمها (الشيخ محمد بن سليمان الروداني (ت 1095هـ)) ومن يبيحها (أبو سالم العياشي). ماء الموائد، ج:3، ص: 718- 719.

[5] الزباد: نوع من الطيب يستخرج من السنور الصغير ويستعمل خاصة فوق الكفن من الميت على شكل طلاسم في الرأس. ينظر: محمد بن مفلح بن محمد المقدسي، فروع الفقه الحنبلي، كتاب الطهارة، باب ذكر النجاسة وإزالتها، دار عالم الكتب، بيروت، 1985، ج:1، ص: 250.وأيضا: ماء الموائد، ج:1، ص: 98.

[6] ومن ذلك تمكن الشيخ خير الدين الرملي(ت1081هـ) من غرس ما يزيد عن مائة ألف شجرة، كلها أطعمت وأكل من ثمرها. حيث علق على ذلك العياشي بقوله:"وهذا أغرب ما يكون وما سمعنا بمثله، وأغرب ما ذكر البلوي في كتابه "ألف با"عن بعضهم أنه غرس ثلاثين ألف شجرة". ماء الموائد،ج:4،ص:1139.

المجلد : 12/ العدد : 02 / الشهر: أوت/ السنة: 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

وزخرفتها، مثل وصفه لضخامة مسجد السلطان حسن [1] وطول أعمدته الرخامية وسعة أبوابه، "كأنه جبال منحوته تصفق الرياح في أيام الصيف بأبوابه، كما تفعل في شواهق الجبال" [2] وما في بعض أبوابه من نقوش عجيبة.

كذلك، يحضر عجيب الرؤيا في "ماء الموائد" ليسهم في خدمة التجربة الصوفية، حيث تتدخل الرؤيا لتحبيب السلوك الصوفي للآخر [3]، ولتغيير مسار حياة بعض الناس [4]، أو تصلح بعض العادات السيئة كالترهيب من شرب الدخان [5]، وغير ذلك من الأدوار المتعددة التي قامت بها الرؤيا العجيبة في هذه الرحلة.

وجدير بالذكر أن الرحلة قد تضمنت أيضا بعض الرؤى التي تدل على حضور كبار الأولياء لمواسم الخير على الرغم مما يقع فيها من بعض الأمور المنكرة شرعا [6]، بل أورد العياشي رؤيا لبعض الفقهاء تدل على حضور النبي صلى الله عليه وسلم لمواسم الصوفية [7]، وهناك كرامة تزعم أن الأبدالفي مشارق الأرض ومغاربها يسمعون أذان صلاة الفجر الذي يرفعه رئيس المؤذنين بمكة،

---

[1] هو السلطان حسن بن الناصر محمد بن قلاوون، والمسجد في الأصل هو مدرسة بناه االسلطان حسن سنة 758هـ، وهي تجاه قلعة الجبل فيما بين القلعة وبركة الفيل، وكان موضعه بيت الأمير بلبغا اليحياوي. عن أخباره ينظر: الخطط المقريزية (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) لتقي الدين أحمد المقريزي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة،ط: 2، 1987، ج: 2، ص: 316.

[2] ماء الموائد، ج:1، ص: 217.

[3] مثل رؤيا الشيخ "صفي الدين القشاشي". ينظر: ماء الموائد، ج:3، ص: 634-635.

[4] مثلما وقع لمحمد بن إسماعيل (ت 1064هـ). ينظر: ماء الموائد، ج:1،صص: 62-64.

[5] عند الارتحال من أرض طرابلس، قال العياشي: "وأخبرني من أثق به بحكاية وقعت لبعض الناس مع صاحب هذا القبر (رجل من الصالحين) في شأن الدخان تدل على قبحه وخبثه؛ وذلك أنه كان عند قبره زيتونة، كان يجلس إليها في حياته، فجاء رجل بعد موته فجلس في ذلك المحل وشرب فيه الدخان، وكان من أكابر البلد، فلما نام في الليل، جاءه ووقف عليه وضربه على رأسه، فقال له: يا فلان مكان كنت أجلس إليه فجئتَ إليه فَنَجَسْتَه، فأصبح الرجل أعمى. أخبرني بذلك من أخبره الأعمى". ماء الموائد،ج: 4، ص: 1272.

[6] على سبيل المثال: حكاية الشيخ عبد الوهاب الشعراني الذي عزم على التخلف عن مولد الشيخ أحمد البدوي، ينظر تفصيل ذلك ضمن: المصدر نفسه، ص: 380-381.

[7] ماء الموائد ، ج:2، ص: 378-379.يعلق العياشيعلى ذلك بقوله: "ولا بدع، فإن للنبي ﷺ تعلقا معنويا ومرافقة روحانية لأمته في سائر شؤونهم وتقلباتهم، فيهتم بما يهتمون به ويفرح بما يفرحون به (...) فقد كانﷺ في حياته معهم على هذا الحال وفيهم المسيء والمحسن (...) وكذلك حاله أيضا ﷺمع أمته بعد موته (...) فهو معهمﷺ في كل أطوارهم وتقلباتهم بمدده الرباني وسره الحقاني (...) فلا يستبعد حضوره ﷺ بروحانيته في محافل المسلمين ومواسمهم ومحال اجتماعهم على أي حال كانوا". نفسه، ص: 379.

المجلد : 12/ العدد : 02 / الشهر: أوت/ السنة: 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

فيحضرون الصلاة من أقطار الأرض البعيدة [1]، ولم ينكر ذلك رحالتنا وإنما قبله من باب خرق العادة، لكن قد يقع الاستغراب من المتلقي قارئ الرحلة.

سعت بعض الكرامات العجيبة لتعزيز مكانة الصوفية، حيث أخذت مسارا خادما للسلوك الصوفي، ومسهما في تنشئة الإنسان الكامل الذي يمكن في لحظة ما أن يمتلك سلطة بعض الملوك ثم يتنازل عنها زهدا وورعا ويقينا في ما عند الله [2]، فالصوفي لا يشغله "العجيب" عن الفناء في الله، كما أشار إلى هذا المعنى بعض الصوفية بقولهم: "ليس من تاه فيه، كمن تاه بعجائب ما ورد عليه منه" [3]، وقد حفلت الرحلة بهذا النوع من العجيب الذي يخدم التجربة الصوفية، فيثبِّت الحجاج ويفرج كربهم أو يبشرهم بقرب النصر وحسن الخاتمة [4]. أما موقف العياشي فجاء منسجما مع ثقافته الصوفية القائمة على قبول الكرامة والتسليم للأولياء.

ث - المكان العجيب

يحظى المكان [5] في أدب الرحلات بمكانة كبيرة، فالرحلة في أصلها انتقال من مألوف المكان إلى إلى غريبه، لكن الصوفية عندما قرروا تأويل ذلك الانتقال وتسخيره لخدمة التجربة الصوفية، أصبح للمكان بعدا روحيا وجماليا متميزا، حيث " الفتح يسرع في بعض الأمكنة" [6]، ومهمة الأولياء هي "إظهار الحضور العادي للقدسي في الكون بواسطة مجموعة من الخوارق" [7]. وإذا كان الصوفي مدركا لأهمية المسالك في الوصول إلى حضرة ملك الملوك، فهو ينظر إلى الأماكن الموصلة إلى هذه الغاية نظرة عاشق

---

[1] ينظر بعض كرامات أهل الشيخ عبد العزيز الزمزمي المكي وهم مؤذني الحرم المكي الشريف، ضمن: المصدر نفسه، ج:3، ص: 712-713.

[2] مثلما وقع للشيخ أبي بكر الطرطوشي، كما أخبر بذلك العياشي: ".. وشى به بعض الحساد إلى سلطان مصر في وقته، فبعث إليه، فلما وصل إليه أراد إهانته، فدعا عليه الشيخ، فانتفخ حتى صار كالزق. فبعث إلى الشيخ يتنصل ويعتذر إليه ويطلب منه أن يدعوَ له. فقال الشيخ: لا أدعو له إلا أن يُعْطِيني جميع مُلْكِهِ. فأعطاه جميع ملكه. فدخل عليه الشيخ، وضربه برجله، فضرط الملك وزال ما به من النفخ. فقال له الشيخ: أُفٍّ لك ولِمُلْكِكَ الذي قيمتُه ضرطةٌ! كيف ينبغي لعاقل أن يَرْغَبَ فيه! قد رددناه عليك. فخرج الشيخ، فعظمت مكانته عند الملك من يومئذ". ماء الموائد، ج: 4، ص:1215.

[3] ورد منسوبا ليحيى بن معاذ الرازي (ت258هـ) ضمن: عبد العزيز عز الدين السيروان، الصوفيون وأرباب الأحوال: مواعظ وحكم وأقوال،السيروان للطباعة والنشر والتوزيع، سوريا، ط:1، 1995، ص: 43.

[4] من ذلك"غريبة" دونها العياشي في رحلته، أخبره بها الشيخ محمد النفاتي أيام لقائه معه بالقدس الشريف. ماء الموائد، ج:1، ص: 132. وكذلك مكاشفات الصالحة ست نعيمة. المصدر نفسه، ص: 1212-1213.

[5] على الرغم من شيوع ألفاظ أخرى في النقد الأدبي؛ مثل الفضاء والحيز، فقد آثرتُ استعمال مصطلح "المكان"، انسجاما مع اللفظ الذي اعتمده العياشي وأكثر من ذكره، وكذلك لتوظيف هذا اللفظ أيضا في النقد العربي المعاصر فيما عُرف بجماليات المكان.

[6] ماء الموائد، ج:3، ص: 865.

[7] الميلودي شغموم، المتخيل والقدسي في التصوف الإسلامي..، مرجع سابق، ص: 59.

المجلد : 12/ العدد : 02 / الشهر: أوت/ السنة: 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

ملهم، فيكون وصفه لها وصف محب لحبيبه، ولعل ذلك ما يفسر طبيعة العلاقة الحميمية للصوفية ببعض الأماكن التي يتم النظر إليها باعتبارها بؤرة المقدس الذي لا يشبه جماله أي شيء آخر في الدنيا، نظرا لما في تلك الأماكن من أسرار، وفي هذا المعنى يقول العياشي: " إن شرَف الأمكنة ليست لذاتها، إنما هو لما اشتملت عليه وأودعه الله فيها، وشرف المسجد النبوي لمجاورته لقبرهﷺ وبيته وصلاته فيه مدة حياته وغير ذلك"[1].

يظهر حضور المقدس أيضا من خلال الأضرحة والزوايا، على اعتبار أن المؤسس (شيخ الزاوية أو الولي أو الصالح) يمنح لفعل التأسيس، طابعا قدسيا، "وبذلك يصبح المجال متماثلا مع المؤسس ويستقي منه قدسيته كما تستمر طقوس المؤسس بفضل حضور المجال حتى وإن اختفى المؤسس من الوجود"[2]، ومثال ذلك زاوية الشيخ أحمد زروق بمسراته، حيث يمارس شرف المكان وشرف الوقت تأثيرا واضحا على نفسية رحالتنا، فنجده يقول: "وكان نزولنا بزاويته صبيحة يوم الجمعة، وزرنا قبر الشيخ بما اقتضاه الوقت من أدب ووقار، وذل وانكسار" [3]. وغني عن البيان أن المكان المقدس لا يمكن يمكن أن يكون إلا جميلا، ومن ثم، فإحساس الجمال لا يفارق من يشاهده، وتعتبر المدينة المنورة من أجمل المدن التي شاهدها العياشي، بل هي منبع الجمال وكل شيء مستحسن في الدنيا يزداد حسنا في المدينة على حسنه، وفي هذا المعنى يقول أبو سالم: "فقد اتفق أرباب الأذواق السليمة أن كل شيء مستحسن في الدنيا من ملابسها وجواهرها ويواقيتها وطيبها يزداد حسنا في المدينة على حسنه الذي كان قبل ذلك، وذلك لسر يدركه أهل البصائر بصفاء السرائر، وكيف لا وتلك حضرة مظهر أصل الجمال ومنبع الكمال؛ فما من جمال في الدنيا والآخرة إلا وهو مستمد من ذلك الجمال. فكيف لا يزداد حسنا عند حصوله بمحل أصل الجمال لقربه من منبعه وقرب استمداده منهجمعه"[4].

من تلكم الأماكن "العجيبة" التي خالفت مألوف المكان بما اشتملت عليه من أمور لفتت انتباه رحالتنا فتعجب منها وتبرك بها وتلذذ برؤية محاسنها؛ مكة المكرمة والمدينة المنورة والقدس الشريف وبعض المدن الإسلامية المشهورة كالإسكندرية [5]، وبسكرة التي عدها رحالتنا "من أعجب المدن وأجمعها لمنافع كثيرة"[6]، وبلدة الفواتر التي توجد بإزاء زاوية الشيخ عبد السلام الأسمر وما تميزت به من أمور

---

[1] ماء الموائد، ج:3، ص: 628.

[2] نور الدين الزاهي، المقدس الإسلامي، مرجع سابق، ص:36.

[3] ماء الموائد، ج: 1، ص: 138.

[4] المصدر نفسه، ج:2، ص: 427.

[5] اعتبر العياشي مدينة الإسكندرية "من أمهات المدن المذكورة في الدنيا (...) ومن عجائبها العمود المشهور بعمود السواري، وهو باق إلى اليوم ماثلٌ في الهواء تحار الأفكار في صنعه (...)ومن عجائبها المنارة المشهورة (..) ومن مبانيها العجيبة التي لا شبيه له في الدنيا حمامها الكبير(...)". ينظر: ماء الموائد، ج: 4، صص: 1213-1221.

[6] ماء الموائد، ج: 4، ص:1282.

المجلد : 12/ العدد : 02 / الشهر: أوت/ السنة: 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

خارقة تجعل "كل من رام أهل هذه البلدة بسوء قصمه الله، ولا يدخلها أحد بزهو وتكبر إلا أذله الله" [1]. وكذلك قبور بعض الأنبياء كعجائب قبر موسى عليه السلام [2]، وأضرحة الأولياء حيث قبور بعض الصالحين التي لم يتغير منها شيء [3]. كما تعرض رحالتنا لوصف عجائب بعض المساجد المشهورة مثل قبة الصخرة بفلسطين ، وتحديدا ما في الصخرة المقدسة من عجائب، وخاصة ما يزعمه الناس من أنها كانت معلقة في الهواء [4]. إضافة إلى ذكر بعض مزارات هذا المسجد وعجائب زخرفته وبنائه [5].

كذلك، تعجب العياشي من بعض الآثار الغريبة، ومنها بيت منحوت في الحجر الصلد [6]، والعين الزرقاء التي شاع بين حجاج بيت لله الحرام أنها هاجرت مع النبي ﷺ حيث "يقولون إنه لما هاجر النبي من مكة تبعته، (...) إلى أن وصلت المدينة، ويصممون على ذلك" [7]. وقد فند العياشي هذا المعتقد، بالرجوع إلى سيرة الرسول ﷺ، "فإنه لم يكن في زمنه ﷺ بعرفة ولا بمكة ولا بالمدينة عين تذكر على هذا النعت ولا ما يقرب منه، وإنما أجريت هذه العيون بعد ذلك بأزمان" [8]. كما اعتبر رحالتنا غار جبل ثور بأنه "من عجائب آثار قدرة الله" [9]، معبرا عن طول تعجبه من هندسته العجيبة [10].

قد تجتمع في المكان غرابته وغرابة من يزوره، مثل قبر حمزة بن عبد المطلب الذي يزوره الخضر عليه السلام كما نقل ذلك رحالتنا [11]. وقد يجتمع شرف المكان مع شرف الوقت، مثل أيام الحج

---

[1] المصدر نفسه، ج:1، ص: 136.

[2] ماء الموائد، ج: 4، ص: 1151-1152.

[3] المصدر نفسه، ص:1274.

[4] المصدر نفسه، ص:1148.

[5] حيث يقول: "وبالجملة، فغرائب الصخرة والمسجد الأقصى وما حولهما من المزارات شيء كثير، وقد ألفت فيه التآليف، وإنما نذكر من ذلك بعض ما رأيناه وزرناه. فمن ذلك حجر خارج بعض أبواب المسجد الغربية مثقوب، هو في أصل حائط يزوره الناس ويدخلون فيه أيديهم ويتمسحون به، يقولون إنه الذي ربط به النبي صلى الله عليه وسلم دابة البراق ليلة المعراج". ماء الموائد، ج: 4، ص: 1148.

[6] ماء الموائد، ج:1، ص: 151.

[7] المصدر نفسه، ج:2، ص: 396.

[8] ماء الموائد، ج:2، ص: 397.

[9] المصدر نفسه، ج:3، ص: 835.

[10] حيث قال: "ولقد طال تعجبي من معرفة الناس بكونه غارا متسعا من داخل، فهو إن لم يكن معروفا عندهم قبل ذلك معهودا؛ فالأقرب أنه بالوحي أو إلهام من الله لرسوله. لأن العادة تكاد تقطع بأن مثل ذلك لا يكون كهفا متسعا من داخل، إذ هو صخرة واحدة منقطعة عن غيرها منكفئة على أخرى منقورة، في وسطها قدر قامة الإنسان ارتفاعا وسعة نحو العشرة أذرع. ولولا عظم الصخرة وتواتر الخبر بأنه كذلك من قديم الدهر لتُوُهم أنها صخرة نُقرت في وسطها، قُلِبت على أخرى بصنع آدمي". ماء الموائد، ج:3، ص: 836.

[11] نقل أبو سالم ما أخبره به الشيخ أحمد بن محمد بُومُجِيبْ(ت1074هـ) "أنه لما حج بقي أمام النبي ﷺ، وقال في نفسه: أنا لا أذهب لزيارة حمزةولا غيره، هذا يكفيني. قال: فأخذتني سِنَة فرأيته عليه السلام، فقال لي: يا أحمد يا حبيبي، عم الرجل عوض

المجلد : 12/ العدد : 02 / الشهر: أوت/ السنة: 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

أو العمرة في شهر رمضان، وكان العياشي يتحين اجتماع بركة الوقت والمكان، حيث يقول: "وكنت تحينت ذلك الوقت وذلك المكان رجاء أن يغفر الله لي (...) فإنه لا يتعاظمه شيء سيما في الوقت الذي تُنْصب فيه رحمته انصبابا، وتنكب الخلائق على موائد أفضاله انكبابا" [1]. ويدل ذلك، على أن المكان يمارس تأثيرا عجيبا في المتلقي، كما أكد ذلك رحالتنا بقوله: "فإذا أنضاف إلى شرف الوقت شرف المكان ربما ورد على القلب الضعيف من الواردات ما يعجز عن حمله ولا يقوى على القيام بحقه" [2]، ولذلك كما كان التأكيد على زيارة بعض الأمكنة المباركة، كان النهي عن التواجد في أمكنة أخرى، لمن لم يصل، مثل "الانفراد عن الناس سيما في المفازات والمغارات البعيدة من العمران لا يقوى عليه إلا من أُيد بروح القدس وكانت له كلمة عالية، وسقطت من قلبه مخافة غير الله، فإن الإنسان مدني الطبع لا يتحمل وحشة الانفراد"[3].

إن المشترك بين هذه الأماكن "المقدسة" هو تعدد مظاهر العجيب فيها، فلم تعد المدن والقبور والمساجد أمكنة بالمفهوم التقليدي بل أضحت أفضية ملتبسة بالعجيب والمقدس، وبذلك ظلت "تعبيرية المقدس محكومة بتعددية المعنى وبلعبة الحضور والغياب، وكذا القدرة على استحضار الغريب والعجيب في واضحة النهار" [4]، وتصبح زيارة تلك المقدسات من أجل التبرك ضرورة صوفية، فهي بحث عن الذات الضائعة وسط زحمة الحياة التي تحكمت فيها الأماني الكاذبة والمغريات الزائفة، وقد شاعت زيارة الأولياء والأماكن المقدسة بين عامة الناس، إلا أن سلوك الرحالة المتصوف هو سلوك العارِف الملهم، بينما سلوك العامة تقليد تشوبه مبالغات كثيرة تحيله في أغلب الأحيان إلى بدع ومنكرات.

خاتمة:

هكذا، تحفل رحلة ماء الموائد بموائد متنوعة من العجيب، شملت أنماطا متعددة وموضوعات جمة، وعكست اهتمام رحالة متصوف، وعلى الرغم من أن بعض العجائب قد سقط موضع التعجب منها في نظر المتلقي المعاصر، بفعل ظهور ما هو أعجب منها، أو بفعل التقدم العلمي والتقني الذي قدّم تفسيرات جديدة لبعض ظواهر الكون، إلا أنما أثار تعجب رحالتنا إنما يعكس بنية تفكير إنسان القرن الحادي عشر الهجري، ولا يمكن قراءة الرحلة الصوفية، جماليا وفكريا إلا على ضوء معارف ذلك العصر وما شهده من أحداث مؤلمة، أثرت في نظرة الإنسان للكون والوجود، وخلقت كائنا مولعا

أبيه! قال: فقمت في الحين وذهبت إلى زيارة حمزة وحدي وكان وقت خوف، ولقيت هناك ثلاث رجال، أحدهم الخضر عليه السلام". ماء الموائد، ج:1، ص: 138.

[1] ماء الموائد، ج:3، ص: 932.

[2] المصدر نفسه، ص: 858.

[3] المصدر نفسه، ص: 851.

[4] نور الدين الزاهي، المقدس الإسلامي، مرجع سابق، ص: 7.

المجلد : 12/ العدد : 02 / الشهر: أوت/ السنة: 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

بالعجائب والغرائب، ولذلك يمكن القول بأن العجيب "يتغير بتغير العصور والثقافات، وتوجهات الرؤى والتحويلات الممكنة في النسق والمرجع، فما يعتبر في عصر ما من باب العجيب، قد تزال عنه هذه الصفة فيفقدها في عصر موال" [1]، إذ "لكل عصر خرافاته، ولكل بيئة أساطيرها" [2]. وهكذا، سيلاحظ القارئ أن موائد العجيب في الرحلة الصوفية "ماء الموائد" "ابن شرعي للبيئة وللثقافة وللقيم وللحضارة التي نبت في تربتها" [3]، ويترتب عن ذلك أن يستحضر المتلقي ظروفا معينة لضمان حد أدنى من التذوق الجمالي ولذة النص العجيب.

قائمة المراجع

- أبو الحسن الشاذلي الصوفي المجاهد والعارف بالله، عبد الحليم محمود، دار الكاتب العربي، القاهرة،د.ط، 1967.
- أبو سالم العياشي المتصوف الأديب، عبد الله بنصر العلوي،منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، 1998.
- التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر في أخبار وأعيان المائة الحادية والثانية عشر، للقادري، د. وتح: هاشم العلوي القاسمي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط:1، 1983.
- الأدب المغربي من خلال تواصلاته،أحمد العراقي،مطبعة أنفو –برانت، فاس، ط:1، 2001.
- الأعلام،خير الدين الزركلي،دار العلم للملايين،بيروت لبنان،ط: 5، 1980.
- اقتفاء الأثر بعد ذهاب أهل الأثر، لأبي سالم العياشي، تح: نفيسة الذهبي، منشورات كلية الآداب، الرباط،سلسلة رسائل وأطروحات رقم: 33، ط: 1، 1996).
- الإنسان الحائر بين العلم والخرافة، عبد المحسن صالح، منشورات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، ع: 235، ط:2، يوليو 1998.

[1] حمادي المسعودي، العجيب في النصوص الدينية،العرب والفكر العالمي،ع: 13و14، 1991، ص: 88.

[2] عبد المحسن صالح، الإنسان الحائر بين العلم والخرافة، منشورات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، ع: 235، ط:2، يوليو 1998، ص: 9.

[3] أحمد عبد السيد أحمد الصاوي، الإبداع والغموض في الفكر النقدي الحديث، الموسم الثقافي لكلية اللغة العربية للعام الدراسي 1418/1417هـ،جامعة أم القرى،مكة المكرمة ، ص: 349.

المجلد : 12/ العدد : 02 / الشهر: أوت/ السنة: 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

- بنية الخارق في سيرة الملك سيف بن ذي يزن: معالجة وصفية تصنيفية،عبد الحي العباس، أطروحة لنيل الدكتوراه، خزانة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهراز، فاس، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، (1999-2000).
- تحفة القادم لابن الأبار، تح: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي،ط:1، 1981.
- الحركة العياشية حلقة من تاريخ المغرب في القرن 17 لعبد اللطيف الشاذلي، منشورا ت كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ضمن سلسلة أطروحات ورسائل:10، ط:1، 1982.
- الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين لمحمد حجي،مط. فضالة، المحمدية، 1988.
- الخطط المقريزية (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) لتقي الدين أحمد المقريزي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة،ط: 2، 1987.
- دليل مؤرخ المغرب، عبد السلام بن سودة، دار الكتاب، الدار البيضاء، ط:2، (60-1965).
- الرحلة العياشية "ماء الموائد"، تق. وتح: خالد سقاط، لأبي سالم عبد الله العياشي (ت 1090هـ)، أطروحة لنيل الدكتوراه، خزانة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهراز، فاس، (1998-1999) جامعة سيدي محمد بن عبد الله.
- الرسالة القشيرية، أبو القاسم القشيري، تح: عبد الحليم محمود، ومحمود بن الشريف، مطابع مؤسسة دار الشعب، القاهرة، د.ط، 1989م.
- شعرية الرواية الفانتاستيكية، شعيب حليفي، دار الحرف للنشر والتوزيع، القنيطرة، ط:2، 2007.
- شذراتالذهبفيأخبارمنذهب،ابنالعمادالحنبلى،طبعةمكتبةالقدسى،القاهرة،سنة1350هـ
- شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، محمد بن مخلوف،دار الكتاب العربي، بيروت، ط:1349،1هـ
- الصوفيون وأرباب الأحوال: مواعظ وحكم وأقوال،عبد العزيز عز الدين السيروان، السيروان للطباعة والنشر والتوزيع، سوريا، ط:1، 1995.
- الطبقات الكبرى، لابن سعد، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع(ت230هـ) تح: إحسان عباس، دار صادر،بيروت،ط:1، 1968.
- فروع الفقه الحنبلي، محمد بن مفلح بن محمد المقدسي، كتاب الطهارة، باب ذكر النجاسة وإزالتها، دار عالم الكتب، بيروت، 1985.
- القدس والخليل في الرحلات المغربية: رحلة ابن عثمان نموذجا، جم. وتح: عبد الهادي التازي، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة إيسسكو،1997.
- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، حاجي خليفة، دار الفكر، بيرروت، 1982.
- المتخيل والقدسي في التصوف الإسلامي: الحكاية والبركة، الميلودي شغموم، منشورات المجلس البلدي بمدينة مكناس، ط:1، 1991.
- مدخل إلى الأدب العجائبي، تزفتان تودوروف، تر: الصديق بوعلام، تق: محمد برادة، دار الكلام، الرباط، ط 1، 1993.
- المقدس الإسلامي، نور الدين الزاهي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط:1، 2005.

المجلد : 12/ العدد : 02 / الشهر: أوت/ السنة: 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

- نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، لمحمد بن الطيب القادري، تح: محمد حجي وأحمد التوفيق، مكتبة الطالب، الرباط،د.ط، 1986.
- نيل الابتهاج بتطريز الديباج لأحمد بابا التنبكتي (ت 963هـ)،تق:عبد الحميد عبد الله الهرامة، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ط:1، 1989.

مقالات:

- التاريخ العربي،ع: 25،شتاء 2003.
- الثقافة المغربية، ع: 8، 1973.
- دعوة الحق، ع: 248،ماي 1985.
- العرب والفكر العالمي،ع: 13و14، 1991.
- فكر ونقد، ع: 26، س: 3، فبراير 2000.
- الموسم الثقافي لكلية اللغة العربية للعام الدراسي 1418/1417هـ، جامعة أم القرى، مكة المكرمة.
- نفحات الطريق، ع: 14، من 20 إلى 26 أبريل 2012.

مراجع أجنبية:

- Roland Barthes, Le plaisir du texte, Editions du Seuil, Paris.
- Mircea Eliade, Mythes, rêves, et mystères, Gallimard, Paris, 1957.

روابط إلكترونية:

- http://membres.lycos.fr/abedjabri/n58_02laamime.htm